

وفي الرد على هذه النقطة نقول إن المفاهيم والعلوم والتعاليم التي جاء بها القرآن أوسع من أن تحصرها الكتب أو الدواوين ، ناهيك بخطبة أو مجموعة من الخطب ، كخطبة قس بن ساعدة أو شعر أمية بن أبي الصلت الديني ، أو شعر الأعشى الذي كان يهتم بوصف التقاليد والطقوس الكنسية مما لم يظهر له أثر قط في القرآن الكريم وغير هؤلاء من جهابذة خطباء العرب الأقدمين .

يشير رودينسون بعد ذلك إلى الآيات الكثيرة التي تكلمت عن أهل الكتاب - يعني اليهود والنصارى - وعن أنبيائهم ، والأحداث التي تتصل بهم والتي لم تشر من قريب أو من بعيد إلى كفر مكة كما هو المعتاد في السور السابقة، بحسب ما يراه هذا الكاتب، لا في الواقع ونفس الأمر .

ويشير أيضًا إلى بعض الفرق النصرانية ، فرقة المنوفوسيين Monophysites ، والنسطوريين Nestorians والملكائية Melkites، ثم يقول : «لقد وقع الخلاف بين هذه الفرق قديماً حول طبيعة السيد المسيح ، وحول تحديد نوع العلاقة القائمة بينه وبين الله، والتي إذا نظرنا إليها من خارج استبان أنها فوارق غير مهمة إلى حد بعيد جدًا ، وحتى أن مؤيدي هذه الأفكار لا يبدو أنهم كانوا يفهمونها كما ينبغي ، إنهم لم يؤيدوا هذه أو تلك النظرية ، وإنما أيدوا هذا أو ذاك الحزب ، أو هذه الفرقة أو تلك، يعني هؤلاء الذين كسبوا تعاطفهم لأسباب مؤقتة أو عاجلة والتي كانت بعيدة جدًا عن اعتبار الأفكار التي تحملها . وبالتالي فإن محض الكراهية للقوة أو الاستعمار الخارجي هو الذي جعل الشخصية المصرية على سبيل المثال تقف بثبات ضد بيزنطة ، وتدفع بالفلاحين المصريين في وادي النيل إلى اعتناق الاعتقاد المتعصب في الطبيعة الواحدة للمسيح . وأما بالنسبة لمحمد ، فإن هذه الاختلافات الواقعة بين ما قاله بشأن المسيحية والتي لقنها له بطريقة خاطئة بعض النصارى واليهود من غير المثقفين ممن كان قد قابلهم وتحدث إليهم، وما هو عند أهلها ليست بالاختلافات الكبيرة ، إنها لا تعدو أن تكون مثل الاختلافات بين الكاثوليكية والبروتستانتينية ، أو حتى بين الفرق البروتستانتينية نفسها . وإن محمدًا شأنه شأن الأنبياء الذين ظهروا في إفريقيا السوداء في عصرنا الحديث كان يتخيل صوتًا يكلمه ويلقي في روعه بكلام يشبه تمامًا ذلك الكلام الذي سمعه من أهل الكتاب» . (ص ١٣١ - ١٣٥) .

وهكذا فإن رودينسون يُنصّر «محمدًا» صلى الله عليه وسلم - أي يجعله نصرانيًا - ويُنصّر دينه زورًا وبهتانًا ، وعدوانًا على الحق والعقل والتاريخ - ونعوذ بالله من